

الوافي في الوفيات

فقلت أنا في الحال : وفرق زانه جعد فأعجبه ذلك كثيرا . وكتب إلي وقد تواترت
الأمطار والثلوج والبروق ودام ذلك أياما ما عهد الناس مثلها : كيف أصبح مولانا
هذا الشتاء الذي أقبل يرعب مقدمه ويرهب تقدمه ويريب اللبيب من برقه المومض تبسمه .
وكيف حاله مع رعوده الصارخة ورياحه النافخة ووجوه أيامه الكالحة وسرر لياليه التي لا
تبیت بليلةٍ منها صالحة وسحابة وأمواجه وجليده والمشى فوق زجاجة وتراكم مطره الأنيث
وتطاول فرع ليله الأثيث ومواقده الممقوتة وذوائب جمره وأهوان به ولو ان كلّ حمراء
ياقوتة وتحدر نوءه المتصعب وتحير نجمه المتصعب ؛ وكيف هو مع جيشه الذي ما أطل حتى مدّ
مضارب غمامه وظلالّ الجو بمثل أجنحة الفواخت من أعلامه . هذا على أنه عرى الأبنية وحلّ
مما تلف في دمه سالف الأستية فلقد جاء من البرد بما رضّ العظام وأنخرها ودقّ فخرات
الأجسام وفخرها وجمد في الفم الريق وعقد اللسان إلا أنه لسان المنطيق ويديّ الأصابع حتى
كادت أعصانها توقد حطباً وقيد الأرجل فلا تمشي إلاّ تتوقع عطبا وأتى الزمهرير بجنود ما
للقوي بها قبل وحمّل الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال سأوي إلى جبل . ومدّ
من السيل ما استبكى العيون إذا جرى واجتحف ما أتى وأول ما بدأ الدمع بالكرى . فكيف أنت
يا سيدي في هذه الأحوال ؟ وكيف أنت في مقاساة هذه الأحوال ؟ وكيف ترأيت منها ما شيب
بثلجه نواصي الجبال وجاء بالبحر فتلقف ثعبانه ما ألقته هراوات البروق من عصيّ وخيوط
السحب من حبال ؟ أما نحن فبين أمواج من السحب تزدهم وفي رأس جبل لا يعصم فيه من الماء
إلا من رحم وكيف سيدنا مع مجامر كانون وشرار برقها القادح وهمّ وقدها الفادح وقوس قزحها
التلون ردّاً عليه صوائب سهامه وبدّل منه بوشائع حلل الربيع ونضارة أيامه وجعل حظّ
مولانا من لوافحه ما يذكّيه ذهنه من ضرامه ومن سوافحه ما يؤكّده فكره من نوامه وعوضنا
وإياه بالصيف وإيا يتقبل وأراحنا من هذا الشتاء ومشى غمامه المتبختر بكمّه المسبل